متى ٢٨، ١-٢٠

السبت العظيم (في القداس)

موت الله وحياة الإنسان

يوم الجمعة العظيمة المقدّسة نُعيِّد "لموت الله"

"في يوم الجمعة العظيمة انحدر المسيح إلى الجحيم فسباه". في مثل هذا اليوم انقلب مفهوم كلّ من الموت والحياة في العالم. لتذكار هذا الحدث، وللتذكير به، نطوف بالزياح المقدّس حاملين صورة المسيح الميت عالمين أنّها حياة في القبر.

قبل المسيح، قبل صلبه وموته، كان الموت عدوّاً رهيباً للإنسان، لقد كان نهايةً بمعنى أنّه قضاءٌ أخير، ونهاية غير محبوبة. الإنسان يحيا ليبني حضارات وعالماً يحبّه، فيتفاجأ بانتهائه هو، ليبقى ذاك! يرفض الإنسان، بطبيعته، بالعمق أن يسير من الحياة إلى "عدم" الموت. لذلك كان طبيعياً أن يجد الإنسان حلولاً أمام هذا التحدّي الوجوديّ.

المصريون الفراعنة آمنوا بحياة ما بعد الموت وعبدوا موتاهم. والفلسفة الروحانيّة هربت إلى التقمّص. نعم إنَّ العدم مرفوض. لا يحتمل الإنسان أن يأتي إلى الوجود ليقضي الوجود عليه في النهاية.

اليهود أنفسهم، من الكتاب المقدّس، ارتاحوا إلى فكرة الجحيم، وهو المكان الذي ينتظر فيه الموتى بعد هذه الحياة. غير أنَّ هذا المكان لم يكن إلاَّ أرض النسيان والظلمة، ولا يُذكَر فيه الله، ولا يَذكُرُهُ اللهُ أيضاً وكأنَّ الله ينسى الموتى ولا يذكرهم. هناك شيء ما بعد موت الجسد، لكن لم تكن تلك الحياة واضحة. لم ينجح المسيح، بالرغم من محاولاته العديدة، بأنّ يتفاهم مع أخت لعازر، عندما قال لها إنَّ أخاكِ سيقوم وإنَّ الموت مجرّد رقاد. لم تكن فكرة القيامة بعدُ واضحةً.

الفلسفات والإيديولوجيّات الملحدة المعاصرة ليست بجديدة، إنّها تكرار شبه أعمى للفلسفات والديانات القديمة. هذه الفلسفات تحاول أن تؤكّد على الحياة كقيمة ولكنّها تحرم الحياة قيمتها الحقيقيّة.

نيتشيه (Neitsche) فرح "بموت الله". وضع على لسان مجنون في مسرحية له صرخة: "أبشروا، أخبركم أنَّ الله قد مات... إنَّ الكنائس ما هي إلاَّ قبور لله". سارتر (Sartre) كرَّر الصرخة نفسها بفرح قبالة الحرب العالمية الثانية. كامو (Camus) الوجوديّ يرى الوجود في ما هو ملموس، والإيمان بما بعد المنظور لديه مرفوضٌ. لقد عظَّمَ الموجود "في الآن"، الظواهر، والجمال، والطبيعة...، لكنّه تناقض مع ذاته حين رأى الإنسان كلاعب كرة يبذل حياته كلها متلاعباً ومجتهداً ليصعد بها إلى قمة جبل وما إن يصل إلى فوق حتّى يضيعها إذ تهبط من جديد إلى البداية! نعم الحياة بالنسبة لهؤلاء ما هي إلاَّ موت صغير ينمو. الحياة يتآكلها الموت. هي تصغر وهو ينمو، الولادة هي ولادة للموت وليس للحياة. يوم الولادة هو أول خطوة نحو الموت. حياة كهذه هي موت. الحياة والموت هكذا مترادفان.

موت المسيح على الصليب كشف المعنى الحقيقيّ للموت وبالتالي أبان معنى الحياة بالذات. جميع الذين ماتوا قبل المسيح ماتوا و لم يعودوا. المسيح وحده بموته أمات خدعة الموت وأظهر أنّه رقاد وحسب. بعد موت المسيح بالجسد صار واضحاً أنّه بالواقع لا يوجد موت وإنّما حياة. خلقنا الله لا لكي ننتهي وإنّما لنبقى. موت الجسد ليس نهاية الحياة. والموت لا يبتلع الحياة حاشى. لقد سمح اللهُ بالموت ليكشف لنا معنى الحياة وغايتها. إذا كان الإنسان لن يموت ولن ينتهي فما هو معنى الحياة والموت في الكتاب إذن؟

الحياة والموت هما السعادة بقرب الله أو الجحيم بتحدّيه. الموت كلمة وهميّة. هناك موتٌ للجسد الذي سنستعيده ممجّداً. الموت غير موجود، إذن: الحياة الأبديّة تبدأ هنا، من الولادة. الولادة هي أولى الخطوات إلى الحياة الأبديّة، موت الجسد حدثٌ في الحياة وليس نهايةً لها.

الولادة هي بداية الحياة، والحياة هي كما عرّفها الربّ يسوع "أن يعرفوك أنَّك أنت الإله الحقيقيّ ومَن أرسلتَ يسوع المسيح".

موت المسيح أبان حقيقة الحياة الحاضرة أنّها "زمن مبارك للربّ"، زمن نبني فيــه حياتنـــا، أي علاقتنا بالله. إنَّ من يحيا هنا من دون علاقة شخصيّة مع الله لَهُو في صميم الموت، ومن آمــن بـــالربّ وأحبَّه، ولو مات، فإنّه كما قال يسوع سيحيا وقد انتقل من الموت إلى الحياة.

موت المسيح عرَّف حياتنا، فبآلامه نحن شفينا وبموته حيينا.
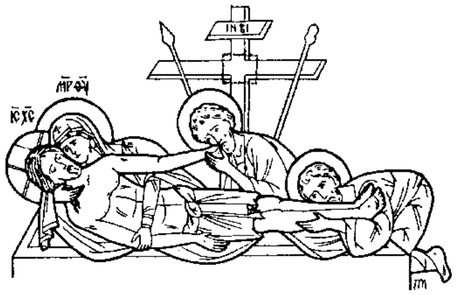
آميـــــن